الـوحـــى

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

[العنكبوت: ٤٨]

قلت: مالى أراك تقف أمامى وتنظر إلىَّ بعينين ملؤهما الشك والريبة؟ أما تريد أن تجلس؟

جلس قائلاً: أتعرف أنك لست مراوغاً فقط، ولكنك ماكر شديد المكر. لقد خدعتنى وموهت على.

قلت: دائما تظلمنى! فأين هذا المكر الذى تدعيه؟

قال: لقد أغرقتنى فى حديث التوثيق والروايات والجمع، وفعلوا هذا لأن وهذا بسبب.

قلت: ماذا فى ذلك؟ ألست وافقت أنت على أن يكون هذا حديثنا؟

قال: وافقت! أنا! إنك أنت الذى أوحيت به إلىَّ وقفزت بى إليه. وما أراك فعلت ذلك إلا لتستدرجنى بعيدا عن المسألة الأهم والأخطر.

قلت: وما هى هذه المسألة الأهم والأخطر، والتى جعلتك هكذا؟

قال: القرآن نفسه ومصدره لا جمعه وتوثيقه. فتلك خطوة أولى تعمدت إهمالها وصرفتنى عنها بحديث التوثيق هذا ولجه ودواماته حتى أغرق فيه فلا أنتبه إليها.

قلت: ومع ذلك فها أنت قد خرجت من لجج التوثيق ودواماته، ويمكننا إدراك ما فات. هل يرضيك هذا؟

قال: يرضينى غير أنه حديث مقلق وعر يصيب فى نفوس المسلّمين تسليماً مطلقاً أمثالك مواضع لا يحبونها، تنتهى بهم إلى الغضب دون الحجة والثورة دون الدليل. وإنى تفكرت ومازلت أراوح نفسي بين أن أواصل وأن أتوقف عن هذا الحديث العسر.

قلت: بل لأن تواصل أحب إلى نفسى وآثر عندى. ولك على ألا أغضب ولا أثور، على أن لا تعاند وتحرن كما يفعل المتشككون من أمثالك.

قال: فإذاً! لقد وثقت لى شيئاً لا أعلم مصدره يقيناً فما يفيد توثيقك فى شئ.

قلت: أما ترى أن توثيقاً بهذه الدقة، وكتاباً يظل أربعة عشر قرناً من الزمان كما هو لا يتغير فيه حرف ولا تختلف فيه نسخة فى شرق الأرض أو شمالها عن أخرى بغربها أو جنوبها، ولا تختلف نسخة من عهد النبى عليه الصلاة والسلام إلى النسخة التى بين يديك بعده بألف وأربعمائة عام ويزيد - أما ترى ذلك وحده معجزة بميزان التاريخ والزمن؟

فدلنى على كتاب واحد على ظهر الأرض غير القرآن وُثق بمثل هذا التوثيق وهذه الدقة، وبمثل هذا التطابق المذهل فى نسخه عبر العصور وعبر الأماكن؟ ألا يدلك ذلك على أنه يعلو على الزمان والمكان؟

قال: قد يكون ما تقول صحيحاً؛ فلست أعلم كتاباً وثق بهذه الدقة والمنهجية. ولكن ذلك لا يكفينى. فما فائدة كل هذا التوثيق والتحرى فى شئ لا أعرف مصدره ولا من أين أتى؟

قلت: فأنت تشك فى أن هذا القرآن وحى منزل من الله؟

قال: ومن أدرانى؟

قلت: فأمامنا التاريخ والروايات الموثقة عن الوحى ونزوله والنبى عليه الصلاة والسلام وحياته. فقل لى أنت: إذا لم يكن القرآن وحياً إلهياً فمن أين أتى به النبى عليه الصلاة والسلام؟

قال: فلعله أتى به من عند نفسه.

قلت: فلو كان عليه الصلاة والسلام قد أتى به من عند نفسه، فدلنى على سبب معقول يدفعه لأن يأتى به؟

قال: الملك والسلطان! أليس بهذا القرآن قد ملك العرب وطواهم تحت يديه؟

قلت: لطالما طالبتنى بالبينة، وها أنت الذى ترسل الأقوال بلا بينة.

قال: وهل تريد بينة أكثر من أن تبعه العرب أجمعون ودانت له جزيرتهم كلها بالقرآن؟

قلت: فأين إذاً المنهجية والنقد التاريخي؟ أما ترى أنك تحكم على التاريخ وقد جعلت رأسه على الأرض وقدميه في السماء ؟

قال: يا لألغازك التي لا تنتهي!

قلت: ليس في الأمر ألغاز ولا يحزنون! إنك ما زدت على أن أدرت تاريخ النبي عليه الصلاة والسلام أمام عينيك كالأفلام، وحكمت عليه بعد أن رأيت بدايته ونهايته. فدع النهاية وكن مع البداية: أحين أتي النبي عليه الصلاة والسلام بالقرآن وجاهر به قومه أطاعوه ودانوا له أم نفروا منه وعادوه وآذوه ومن آمن معه؟

قال: عادوه وآذوه ونفروا منه! ولكن قل لي: أما ترى أنه كان يعلم أن نفورهم وعنادهم هذا إلى حين، وأنهم لابد مذعنون له وقد أتاهم من مكمن عزتهم ومنبع فطرتهم: البلاغة والفصاحة. وإنك تعلم أن كلمة بليغة في هؤلاء العرب لتخفض أقواماً وترفع آخرين، وإن بيتاً من الشعر ليثير من الحرب الضروس ما تعجز السنون الطوال عن إزالة آثاره.

ألست معي أنه كان في مقدوره أن يعلم – وقد أتى العرب من لسانهم – أنهم لابد متبعوه؟

قلت: فقل لي: قد خبرت التاريخ والشعوب، ففي أي سني العمر يتطلع المرء لتغيير عالمه ويطمع في الزعامة وتهفو نفسه إلى الملك والمغامرة في سبيل ذلك بكل رخيص وغال؟

قال: ما تسألني عن شئ إلا وأنا أعلم علمك به. فليس بخافٍ عليك أن استقراء التاريخ وحركات التغيير فيه ودراسة القادة والثوار عبر التاريخ لتخبر أن القادة واشتعالهم وفوران نفوسهم وطموح عقولهم لتغيير شعوبهم والعالم من حولهم ليكون في شرخ الشباب في سن الفورة والوفرة.

قلت: ففي أي سني العمر تحديدا؟

قال: فى العشرينات أو الثلاثينات على أكثر تقدير.

قلت: وهل يشذ عن هذه القاعدة أحد؟

قال: فى حد علمي أن ذلك يستوى فيه قديم التاريخ وحديثه، شرقه وغربه، فلا يفرق فيه الإسكندر عن نابليون، ولا جنكيز خان عن جيفارا.

قلت: ففى أى سنى عمره بدأ النبى عليه الصلاة والسلام يدعو الناس ويخبرهم أن ما يقوله هو وحى نزل عليه من السماء؟

قال مبتسماً: عدت لاستدراجى مرة أخرى.

قلت: وهل مثلك يمكن استدراجه؟ أهذا تواضع أم مراوغة؟

قال: لا فائدة! كان فى الأربعين من عمره.

قلت: فها أنت تكون قد حكمت أنه فات سن التطلع إلى الملك والمغامرة فى سبيله. وما كان عليه الصلاة السلام إلا فى السن التى يركن فيها المرء إلى الدعة ويخلد إلى الراحة ويكيف عقله ونفسه تبعا لما حوله، فيتواءم معه ويقبل منه ما كان يخالفه فى سنى شبابه.

قال: قف قبل أن تستطرد فلا تتوقف. نعم كان فى الأربعين من عمره، وهى سن يصعب فيها أن يبدأ امرؤ مغامرة كهذه يجابه فيها قومه أجمعين بثورته. لكن ذلك لا يستحيل.

قلت: فكن أنت الآن طالب ملك.

قال: فهذه أحجية جديدة!

قلت: وأنت تطمح إليه وتثور نفسك شوقاً إليه وطلباً له. فإذا جاءك من يعرض عليك الملك الذى تريد، أفتقبل الملك الذى جاءك رخياً هنياً أم تتركه وتحفر فى الصخور الصم بأظافرك بحثاً عنه؟

قال: أترى أن هذا سؤالاً يُسأل لعاقل أو مجنون؟ أفاترك الملك الذى جاءنى وأذهب لأبحث عنه هو هو فى الصخر؟!

قلت: فلو كان عليه الصلاة والسلام يطلب الملك كما تقول، لكان أولى به أن يترك القرآن لا أن يأتي به.

قال: لم أفهم شيئاً.

قلت: خذ وستفهم بنفسك. هذا التاريخ فاستفهم منه. اقرأ أنت لترى بعينيك وتسمع بأذنيك.

قال: هات! «قال عتبة بن ربيعة وهو جالس - يوماً - في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش! ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد. قم إليه فكلمه. فقام إليه عتبة حتى جلس إلي رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت. وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها. قال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا».

قاطعته قائلاً: ها! ما تقول؟ أما كان الأجدر به - عليه الصلاة والسلام - لو كان يطلب ملكاً أن يقبله يسيراً هنياً ومعه رضا قومه عليه واجتماعهم إليه بدلاً من كل هذا العنت والمشقة؟

قال: رفض الملك وقد عرض عليه؟

قلت: نعم!

قال: فذلك ليس عندي بشئ! فإن الملك ليس كل شئ. ففي الدنيا أناس تؤرقهم مجتمعاتهم ولا يتآلفون معها ويلفظون عقائدها ويبحثون عما يريح نفوسهم القلقة في غيرها. وبعضهم قد يصوغ رؤاه وما يتبدى له لأتباعه،

فيترصدون ما فى مجتمعهم من فساد وما يريم عليه من خلل، فيأتون لكل فساد بإصلاح، ولكل خلل بما يسده، وما فى ذلك وحى ولا كلام إلهى.

قلت: أفترى أنه - عليه الصلاة والسلام - مصلح رأى أدواء قومه فهمّ لعلاجها، وما القرآن إلا صياغته لما رآه من علاج وإصلاح؟

قال: وماذا فى ذلك؟ بل ولا أدل عليه مما ذكرته أنت من أنه ما جاء بالقرآن إلا بعد أن تخطى الأربعين من عمره.

قلت: وما علاقة الأربعين بالإصلاح الذى تدعيه؟

قال: أليست سن نضج العقل وكمال الفكر ورشد النظر؟ وإن من ينظر إلى العرب قبله ليراهم فرقاً مبددة مشتتة طحنتها حروب القبائل، ونظاماً متهرئاً تفشت فيه الأدواء الاجتماعية والعقلية. وهم بعد ذلك فى ذيل الأمم وخارج التاريخ.

فقل لى: إذا نشأ نابه فى هذا الجو وهذه الحالة فأمعن التفكر فيما حوله من اضطراب وفساد وخلل، أما يكون ذلك كافياً ليثور ويهب لاصلاحه، ويكون من فسادهم تهيئة لإصلاحه، ومن اضطرابهم سبب لنظامه، ومن ضعفهم وتشتتهم دافع لتوحدهم به.

قلت: وكأنك تحدثنى عن فيلسوف نظر فى تاريخ الأمم واستقرأ أحوالها وأسباب قيامها وصعودها وعوامل انهيارها وفناءها، فصاغ نظرية يصلح بها مجتمعه ويشيد بها أمته؟

قال: أليس ذلك أصوب فى نظر العقل وأكثر استقامة مع منطق الأمور؟

قلت: ففى أى الجامعات ومعاهد العلم تعلم ذلك أيها الأريب؟ أنسيت أنه كان عليه الصلاة والسلام يعيش فى القرن السابع لا فى القرن العشرين. وأهم من ذلك أنسيت أم تناسيت أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب؟ بل وما كان العرب جميعاً إلا أميين عدا قلائل يعدون على أصابع اليد. وحتى هؤلاء ما كانوا

يعلمون شيئاً لا عن الأمم السابقة ولا أحوالها ولا أخبارها إلا نتفاً مما ينثره التاريخ فى الأمم لا تفيد علماً ولا تقيم منهجاً.

قال: دعك من هذه المراوغة. فإن ذلك ليصعب مع الأمية لكنه ليس بمحال معها. فإن معرفة الفساد والعلم بوجوه إصلاحه لا يكتسب فقط من الكتابة ومطالعة الكتب، وإنما أيضاً من سماع الأخبار ومعرفة أحوال الأمم السابقة أو المجاورة، بل ومن ذكاء العقل وصفاء النفس.

قلت: يا لعنادك الذي لا حدود له! فقل لى: إذا كان النبى عليه الصلاة والسلام معلماً والقرآن حكمته، أما كان الأولى به أن ينسبه لنفسه لا أن ينسبه لغيره؟ أما ترى أن ذلك أجلب لشرفه وأرفع لذكره وأخلد لاسمه فى العرب؟

قال: إنك لأنت العنيد! فإنك تعلم أنه لم ينسبه إلى أحد أى أحد ولكنه نسبه إلى الله: قدرة مطلقة وقوة قاهرة، وإنك لتعلم سطوة الألوهية القاهرة على النفوس. ولو قال إنه من عنده لما آمن به أحد ولا خضع له العرب. أما ترى أنه لو نسب القرآن إلى نفسه لما زاد على أن يكون رجلاً كبقية الرجال. أما وقد نسبه إلى رب وإله فقد ارتفع فوق البشر جميعاً بما ليس فى طاقة أحدهم ولا جميعهم أن يصلوا إليه. أليس ذلك سبباً كافياً لكى ينسب القرآن إلى الله لا إلى نفسه؟

قلت: أما ترى أنت أنك تشتط فلا تختار من الفروض إلا أبعدها عن العقل ثم تلوى لها الحجة لياً؟

قال: فليكن! فإنك لا تحدثنى عن أمر عادى ولا شئ يقال فينسى أو يترك. فهل هناك أخطر من الحديث عن كلام إذا ثبتت نسبته إلى الله لما كان لأحد معه إلا التسليم المطلق. فلا تظن أنى سأصمت وأتركك تقول ما تريد وكأنك فى نزهة. بل لا أسلم لك إلا مع أعسر الفروض.

قلت: فذلك لك. فشهادة قومه عليه وهم كافرون به محاربون له لترد عليك. فخذ فاقرأ.

قال: البخارى!

قلت : اقرأ ولا تهرب !

قال : فإنى لا أهرب أبداً : أخبر أبو سفيان بن حرب أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام فى المرة التى كان رسول الله ﷺ مادّاً فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم. ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً. فقال : أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه : قل لهم : «إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذب فكذبوه، فوالله لولا الحياء فى أن يأثروا على كذباً لكذبت عليه»(١).

قلت : تمهل! اقرأ هنا.

فقرأ : قال هرقل : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان : قلت : لا.

قلت : ثم اقرأ هنا.

قال هرقل : وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا، فعرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

قلت : فانظر إلى حصافة هرقل وسمو عقله لا إلى عنادك أنت وشكك الذى لا ينتهى. فإنه استشهد قوم النبى عليه الصلاة والسلام نفسه، وجعل بعضهم شهوداً على بعض حتى لا يستطيع أحدهم الكذب. ثم إنه لم يشطح فيستخرج النتيجة من مقدمة لا علاقة لها بها أو لا وجود لها كما تفعل أنت. إنما وضع المقدمة المعلومة وهى الشهادة، وهى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن ليترك الكذب على الناس ويعيش بينهم صادقاً مصدقاً حتى ليلقب بالأمين ثم يكذب على الله عز وجل. أفمن يكون أميناً صادقاً مع الناس وهم لا يرونه ولا يراقبونه، يفترى الكذب وينسب القول – زوراً – إلى من يراقبه ويعلم سره ونجواه؟

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «بدء الوحى». حديث رقم (٧).

قال: رويدك قليلاً! فإني لم أقل إنه كاذب يخادع قومه، بل يرى أن هذه هى الوسيلة المثلى لإصلاح شأنهم وترقية حالهم.

قلت: فقل لى: كيف كان كلامه عليه الصلاة والسلام؟

قال: ما كلامه؟ لست أفهم ما تعنيه.

قلت: هل كان كل ما يتكلم به عليه الصلاة والسلام يقول إنه من عند الله؟

قال: وما فائدة ذلك؟

قلت: أجب فقط وانتظر!

قال: لا. بل كان هناك ما يقول إنه من عند الله وأنه قرآن، وهناك ما جمعه البخارى وأمثاله بعد ذلك من أحاديثه التى لم ينسبها إلى الله ولم يقل إنها قرآن.

قلت: فهل علمت أحداً فى التاريخ كله يتكلم بطبقتين من الكلام الفرق بينهما كالفرق بين القرآن والأحاديث؟ فلو كان القرآن من عنده ﷺ، أما كان يمكنه أن يجعل كلامه طبقة واحدة فيصير كله قرآناً؟

قال: وماذا فى ذلك؟ فإن الشعراء بل وعامة المثقفين ليتكلمون فى مواضع ومجامع ومحافل بقصائد أو كلمات دونها كثيراً ما يتكلمونه فى حياتهم اليومية ويباشرون به أحوالهم العادية. فهذه كتلك.

قلت: أما ترى أنك تتكلم عن أمى لا عن شاعر ولا مثقف. ثم أعلمت أحداً ممن ذكرت يكون الفارق بين طبقتى كلامه والتباين بين طريقتى بيانه بحيث يخضع العرب لأحدهما ويخرون أمامه سجداً، ومن كفر به منهم لا يقدر على شئ أمامه إلا الصمت. وأما الثانى فيأخذون منه ويردون عليه، ويصوبونه ويخطئونه، ويحسون أنه ككلامهم هو منهم وهم منه.

أما آن لك أن تترك عنادك هذا والشك المستحكم فى رأسك وتُقر أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند نفسه عليه الصلاة والسلام؟

ابتسم قائلاً بمكر: عدت لسيرتك وتريد أن تقطع الطريق على كما تفعل دائماً . لا . لن أتركك هذه المرة . هات السيرة التى أقرأتنى منها .

قلت: ها هى!

قال: فاقرأ هنا!

قلت: ها قد جعلتها واحدة بواحدة أنت أيضا: «واجتمعت قريش يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم، وكانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدبرون له، فخلص منهم أربعة نفر نجياً وهم: ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شئ. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع»:

قال صائحا: قف ثم اقرأ ها هنا.

قلت: كما تريد: «وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان.

وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مُسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش! والذى نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى. ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكن لا أعلمه يسجد على راحته.

قال فى جذل وسرور: أرأيت؟! لماذا لا يكون القرآن كأشعار زيد بن عمرو التى تبرأ فيها من دين قومه وترك أوثانهم وذبائحهم؟

قلت: وما حال النبى عليه الصلاة والسلام حينئذ؟

قال: ألم يعتزل قومه وكان ينفرد بنفسه فى غار حراء يقلب وجهه فى الناس والسماء؟

وما كان إلا أن تفكر فى حال قومه ورأى سفههم، فاعتزلهم وترك دينهم ونبذ آلهتهم، وتحنف كما تحنف هؤلاء ووصل إلى ما وصلوا إليه.

قلت: فإنك قد أجبت على نفسك بنفسك.

قال: قد ظهرت الألغاز مرة آخرى!

قلت: أما ترى أن هؤلاء الأربعة الذين ذكرتهم لم يصلوا إلى شئ؟ فبعضهم ذهب إلى النصرانية، وبعضهم توقف عن جمع الأديان. وما جمعهم إلا فراقهم لدين قومهم. فهم قد اجتمعوا اجتماع افتراق واتفقوا اتفاق اختلاف.

أما ترى أن زيداً نفسه يقول: لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ولكن لا أعلمه؟

فأين ذلك من العقائد الواضحة الفاصلة والشرائع المبسوطة فى القرآن، والأحكام المبثوثة فيه، وأحوال الآخرة والبعث والحساب والجنة والنار بكل تفصيلاتها الدقيقة؟

ثم قل لى: ما مصير زيد بن عمرو؟ اقرأ أنت وقل لى.

قال: لا حاجة بى إلى القراءة. إنه خرج يبحث عن دين إبراهيم فى الشام ومات وهو عائد.

قلت: أرأيت من منا المراوغ الذى يقف فقط عندما يريد؟ فما الذى أعاده من الشام؟

قال مبتسماً: يقولون إنه لقى راهباً فسأله عن دين إبراهيم فأخبره أنه يطلب ديناً ليس عليه أحد.

قلت: أكمل! ثم ماذا؟

قال: ثم قال له: قد أظل زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فقفل عائداً إلى مكة.

قلت: فدعك من حديث الراهب. وقل لى: أين هذا التيه النفسى والحيرة

الروحية والقلق الذى لا يتوقف من معرفة النبى عليه الصلاة والسلام بربه وثقته بنصره؟

فقل لى: إذا وقف رجل أمام قومه جميعاً لا يفر ولا يخرج من بينهم ولا يرضخ لهم، وإنما يجابههم بقوله: لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه، فخبرنى وأنا لك مصدق: ما تكون نفسية هذا الرجل؟

قال: ثقة وتحدٍ ومضاء وعزم صميم.

قلت: فأين هذا التحدى والثقة والمضاء والعزم الصميم - كما أقررت أنت - من تيه زيد بن عمرو وحيرته وتقلبه فى الأرض وسجوده على راحته لا يعرف كيف يعبد ربه؟

قال: ففى أشعار زيد نبذ لدين قومه وعباده الأوثان وبحث عن ربه.

قلت: نعم! بحث عن ربه لا وصول إليه. فقل لى: لو خصمته العرب فأى حجة كانت له عليهم؟ ولو تبعوه فأى شئ عنده يدلهم عليه أو يرشدهم إليه؟

فهب أن أحداً من العرب تبع زيداً فقال له زيد: دع دين قومك واعبد ربى وحده. فلو قال له من تبعه: فما ربك، وما صفته، وكيف أعبده، وما يعطينى إن أطعته، أترى زيداً يملك له جوابا؟

قال متفكراً: لا.

قلت: ثم أعلمت أحداً من العرب وقف أمام أشعار زيد فافحمته وأقر أمامها بعجزه كما أفحمهم القرآن ووقفوا أمامه مبهوتين لا يردون ولا يجدون جوابا؟

فتفكر ملياً ثم قل لى: ألا ترى أن طبقة القرآن اللغوية وتفرده البيانى وعلومه وشرائعه ونبوءاته تدلان على أنه شئ وأن النبى عليه الصلاة والسلام وحديثه شئ آخر؟

قال: فلم يكن القرآن منه طلباً لملك ولا إصلاح ولا تفكراً وتحنفاً؟

قلت: بل ولم يكن يخطر له على بال، ولم يكن يواتيه كما يريد، ولا يعبر عن نفسه ولا ذاته عليه الصلاة والسلام.

قال: ها قد عدت إلى الكلام المرسل بلا دليل ولا بينة!

قلت: بل دلائل وبينات.

قال: دلائل.....وبينات! فاين هى هذه الدلائل والبينات؟

قلت: أنت الآن شاعر كبير.

قال: فهذه إذاً قصة جديدة!

قلت: والناس يعجبون بشعرك ويشهدون لك به وتسمو بينهم بذكره.

قال: حين تبدأ لا يمكن إيقافك! ها! أكمل.

قلت: وأنت تريد إنشاء قصيدة بديعة تكتسب بها الذكر والصيت ولا يغيب عن الناس اسمك أفيعجزك أو يعجز شاعراً مجيداً أن يُنشأ قصيدة يريدها؟

قال: ربما يعجز حيناً!

قلت: وماذا بعد هذا الحين؟

قال: أطيل التأمل وأتريض حيناً وأمتع ناظرى بجمال خلاب أو سمعى بأنغام رخية ثم أطلق نفسى على سجيتها، ولو عجزت عن قصيدة فلن أعجز عن أبيات.

قلت: فإذا عجزت عجزاً مطلقاً عن قول الشعر ولو بيت واحد؟

قال: لو عجزت عن قصيدة وأبيات لا بيت واحد لما كنت شاعراً.

قلت: أى لا يكون ما تقوله من نفسك أنت. فها أنت قد حكمت أن القرآن لم يكن من عند النبى عليه الصلاة والسلام ولم يكن يقوله من نفسه.

قال متعجباً: وما أدخل الشعر فى القرآن؟ لا أظن أنك تريد أن تجعل القرآن شعراً؟

قلت: لا. ولكن صبراً! إذا كان النبى عليه الصلاة والسلام يأتى بالقرآن من نفسه كما تقول أنت الشعر أما كان يستطيع حين يريد أن يأتى بآية أو آيات ولو قليلة؟

قال: بل كان يستطيع. أليس هذا ما كان يحدث؟ والقرآن ما كان إلا مفرقاً منجماً فى بضع وعشرين سنة، أم تراك نسيت؟

قلت: فإنى أحتفظ بشهادتك هذه، وأرجو ألا تلجأ إلى المراوغة فتعود فيها.

فانظر: إن الوحى بعد أن جاء النبى عليه الصلاة والسلام فى غار حراء بـ﴿ اقْرَأْ ﴾ فتر عنه وتوقف، فتشوق إليه النبى عليه الصلاة والسلام وأخذ يبحث عنه ويخرج إلى الجبال يتنسمه فى ذراها وشواهقها حتى كاد اليأس من عودة الوحى يمزق نفسه ويشتت روحه، ويجعله شديد التوتر والحيرة حتى يشك فى نفسه ويقول لخديجة: إنى لأخشى أن أكون كاهناً.

فقل لى: لو كان القرآن منه عليه الصلاة والسلام فما الذى ألجأه إلى كل هذه الحيرة والاضطراب والتمزق والتشكك فى نفسه؟ ألا يدلك ذلك على أن القرآن كان خارجاً عن إرادته ولا يواتيه طوع أمره. وإلا لأراح نفسه بآيات قليلة يسكن بها عقله وقلبه وروحه، ويرد بها على من يعيره ويقول له: إن ربك قد قلاك؟

قال: إن ذلك كان فى بداية أمره، ولم يكن أتى من القرآن إلا ﴿ اقْرَأْ ﴾ كما قلت أنت، فربما لم يكن قد استكمل آلته ولا نضجت ملكته!

قلت: فإن جدالك هذا الذى لا آخر له وحججك المراوغة التى لا تنتهى لدليل من حيث لا تدرى على أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يملك القرآن طوع أمره ولا يأتى به أنى شاء، بل بتقدير من الله عز وجل.

قال باستغراب: أنا وحججى دليل! بل هى شراكك التى تعدها وشباكك التى تحيكها بمهارة - وأقر لك - فما أشعر بها إلا وأنا فيها.

قلت: تريد التفلت! قل لى: أنت خصم عنيد لا تأتيك البينة إلا طلبت غيرها، ولا ترى الحجة حتى تلويها، وإذا استعصت عليك تجاهلتها وغطيت عليها بشئ آخر.

قال: أتريدنى أن أحاورك وأجادلك وأنا مغمض العينين وافتح لك رأسى لتضع فى عقلى ما تشاء، بل لابد أن أرد عليك وآتيك بحججى وأدفع حججك.

قلت: فإذا ألقيت إليك القول فلم ترد ولم تحر جواباً، ولا بحثت عن حجة تهرب بها، ولا راوغت كما تفعل دائماً؟ وأنت مع ذلك مصر على ما أنت عليه لا تتزحزح عنه. أما يدلك ذلك على أنك لا تملك القول ولا تأتى بالحجج من عند نفسك؟

قال: نعم! لو رأيتنى وقفت وما استطعت محاورتك ورد حججك. وما وقفت!

قلت: فما رأيك فى هذه القصة. جلس النبى عليه الصلاة والسلام فجاء الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث فأرادوا مجادلته والدفاع عن آلهتهم، فقال لهم النبى ﷺ: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى فجلس ولما علم ما حدث قال: سلوا محمداً: أكل ما يُعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود يعبدون عزيراً، والنصارى تعبد عيسى بن مريم. فهؤلاء فى النار؟!

قلت: أتدرى ما حدث؟

قال: إن ابن الزبعرى هذا لذكى أريب، إلا أن الرد على ذلك ليس بعسير.

قلت: فإنه لم يرد، بل سكت عليه الصلاة والسلام ولم يجد ما يقوله وانصرف عنهم لا يعرف كيف يجيب. وبعد ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

فلو كان يأتى به من عند نفسه أما كان يستطيع أن يراوغ كما تفعل أنت؟

قال: بل كما تفعل أنت.

قلت: حسناً كما أفعل أنا. أما كان يستطيع أن يراوغ ويخترع الحجج ويأتى بآية أو آيتين يرد بها عليهم؟

قال ساهماً: كلامك معقول.

قلت: فها أنت قد أقررت أن القرآن لم يكن يأتيه حسب ما يريد، ولو كان ما ترك أن ينتصر به فى موقف كهذا ملئ بالخصومة والتحدى على الملأ يتشبث فيه المرء بأى شئ يرد به خصومه وينتصف به لنفسه وكبرياءه حقا كان أو ...

قال: قف! قف! دائماً ما تنتهز موافقتى فتنهمر كالسيل لا تريد أن تتوقف. فذاك مثال واحد وربما فاجأه قول ابن الزبعرى فلم يستطع رده وقتها. فإن القول والتحبير شئ والبديهة شئ آخر.

قلت: إن الزئبق ليحسدك على تفلتك هذا، فلا تلبث أن تقر حتى يغلبك عنادك فترجع عما أقررت به.

قال: ولو!

قلت: فأى شئ عند العرب هو أجلب للحمية، يثير غضبهم وثائرتهم حتى ليفنون فى ذلك أولهم وآخرهم ولا يبالون فى سبيل ذلك بشئ؟

نظر إلىَّ طويلاً وأخذ يحك طرف أنفه بإصبعه ثم قال:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

قلت: يا لذكائك الرائع؟!

قال: إن ذلك لا يحتاج إلى ذكاء، وما هو بالتاريخ المطمور فيُجهل. بل هو أمر معروف موروث. إن العربى ليستهين فى سبيل شرفه والذود عن عرضه بكل شئ، ولا يبالى ابتغاء ذلك أن يرفع سلاحه ويشهر سيفه ولو كان يعلم فى ذلك ذهاب روحه.

قلت: فإذا كان الذود عن عرضه لا يحتاج سلاحاً ولا سيفاً بل مجرد كلمات يقولها فيسلم شرفه من الأذى ويصان عرضه من دنئ القول؟

قال: إذاً لقال من الكلمات ما يملأ الصحائف الطوال.

قلت: فإذا لم يقل ولم ينطق شيئاً بل سكت أياماً وأسابيع؟

قال: إن ما تقوله لعجيب! فكيف إذا يستطيع أن يصون عرضه بكلمات ولا يقولها. لا ريب أنه لا يستطيع هذه الكلمات التى تدعيها أنت له.

قلت: يا لك من عاقل حكيم! أتعرف أن عقلك هذا العنيد هو ما أرجوه منك وأحتكم به إليك.

قال: أراك تسعد بحيرتى كما تسعد الأطفال بالحلوى فى العيد!

قلت: بل أسعد بعقلك الحكيم الذى يصل بنا دائماً إلى شاطئ الأمان. فخذ فاقرأ.

قال: لقد صار البخارى رفيقنا الذى لا يتركنا: عن عائشة رضى الله عنها قالت: أقرع بيننا رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها فخرج سهمى، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل... أذن ليلة بالرحيل... أقبلت إلى رحلى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع، فالتمست عقدى وحبسنى ابتغاؤه... فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى ركبت وهم يحسبون أنى فيه...

فوجدت عقدى بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب... وكان صفوان بن المعطل من وراء الجيش فادلج فأصبح عند منزلى.... فأتانى فعرفنى حين رآنى وكان يرانى قبل الحجاب فخمرت وجهى بجلبابى. والله ما كلمنى ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش... فقدمنا المدينة

والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرنى فى رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً. وما كان يدخل على أهل بيتى إلا معى. فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله أنا أعذرك فيه. إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخوتنا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج فقال لسعد: كذبت لعمر الله. لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير فقال لسعد: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هما أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر(١).

قلت: كفاك كل هذه القراءة. فإنى أراك قد جهدت، وقل لى: ما ترى؟

قال: إشاعات وأقاويل وفتنة واختلاف واقتتال.

قلت: وهمّ وغم فى بيت رسول الله ﷺ، وشر مستطير ركب المدينة وقلبها رأساً على عقب حتى كاد يحرق الألفة بين قلوب أهلها.

قل لى: قد أقررت أنت أن هذا موقف يدفع فيه المرء بكل ما يستطيع قولاً وعملاً وإن قدر فقوة وقتالاً. فلو كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأتى بالقرآن من نفسه أما كان يستطيع أن يأتى بآية أو آيتين يدفع بهما الأذى عن زوجه ويصون عرضه ويزيل الهم من بيته والفتنة والعداوة الناشبة بين صحابته وقد انقسموا فريقين بل فرقاً، بعضها يبرئ، وبعضها يقف، وبعضها يشير بالطلاق وكلهم يختلف حتى يوشكوا على الاقتتال؟ وهو بعدُ فى موقع القائد يعوزه أن ينزه عرضه وأن يحكم سيطرته على أتباعه.

قال: ربما كان ما تقول صحيحاً؛ فإن هذا موقف عصيب على آحاد الناس فضلا عن القادة والزعماء.

---

(١) رواه البخارى فى كتاب «التفسير» حديث رقم (٤٧٥٠).

قلت: وهو موقف لا يسكت فيه عربي عن قول يدفع به عن نفسه لو استطاعه وهو يعلم أنه يحسم الأمور ويجعله في حرز أمين وسماء سامقة.

أما ترى أنه بعد كل هذا الكرب والهم شهراً طويلاً نزل القرآن بالبراءة، فأصبحت قضاءً مبرماً وزال الغم والهم وعاد الوئام والوفاق؟

فلو كان يقدر على القرآن ويأتي به من ملكات عقله ودخائل نفسه، أما كان الأولى به عليه الصلاة والسلام أن يأتي بما ينزه عرضه ويعيد الوفاق لأصحابه؟

قال: على رسلك وتمهل قليلاً: إن القرآن لا يواتيه حسبما يريد ويرغب وسأقول معك: إن القرآن لم يكن من نفسه ولا من بنيات أفكاره ولا من علمه ومعرفته. ولكن ذلك لا يثبت أن القرآن وحي من الله! فذلك أمر مازال بعيداً عن كل ما قلته؟

قلت: فإذا كان القرآن ليس من عنده عليه الصلاة والسلام فمن أين يكون؟

قال: يا لدهائك! إنك دائما تعد نفسك وتسوق الكلام إلى حيث تريد وتتعجلني حتى تلقاني بالكلام ولم أعد عدتي ولم آخذ أهبتي.

قلت مبتسما: فأعد عدتك كما تريد، وخذ أهبتك كما تحب أيها المتفلت العنيد.

* * *

قلت ضاحكاً: إن جفونك المنتفخة لتخبرني بطول سهرك ونصبك.

قال: أتعرف أن ما نشأ بيننا من سجال ليرهقني.

قلت: أفتريد أن تتوقف فلا تكمل؟

قال: لا تعجل على ودعني أتم جملتي. فإنه ليرهقني حقاً ولكني لا أكتمك: إنه ليثيرني ويمتعني أيضاً.

قلت: وإنى لكذلك! وإنك على عنادك ومراوغتك لحبيب إلى قلبى قريب إلى نفسى. ولا أكتمك أنك لو لم تكن منى لكنت أنا منك.

على كل حال فلندخل فى موضوعنا! إلام وصلت بعد طول سهرك؟! أما زلت ترى أن القرآن يمكن ألا يكون وحياً إلهياً؟

قال مبتسماً: لا تظن متعتى بلقائك ستجعلنى أرفع الراية البيضاء أمامك. فذلك شأن آخر! ما رأيك فى بحيرى؟

قلت: ماذا تريد منه؟

قال: أخبرنى فقط ماذا تعرف عنه؟

قلت: إنه راهب كان يقيم فى بصرى بالشام يعتزل الناس فى صومعة له.

قال بابتسامة ماكرة: أهذا كل ما تعرفه عنه؟

قلت: بل وما أجهدت نفسك فى البحث عنه والوقوف عنده؟

قال: فأكمل إذاً.

قلت: روت كتب السيرة أن النبى عليه الصلاة والسلام خرج مع عمه أبى طالب للتجارة بالشام فمروا على بحيرى فى صومعته، فرأى فى النبى عليه الصلاة والسلام دلائل النبوة فصنع لتجار قريش طعاماً ودعاهم إليه ثم حدث النبى عليه الصلاة والسلام وتفحصه، وبعد ذلك نصح أبا طالب أن يرجع بابن أخيه وأن يحذر عليه اليهود.

قال: قف! يكفينى هذا! راهب وحبر عالم ضمه إليه وحدثه.

قلت: وماذا فى ذلك؟

قال: ألا ترى أن فى هذا اللقاء تفسير ما جاء بعد ذلك فى القرآن من قصص وأخبار وأنه يكفينا مؤونة البحث عن مصدر القرآن؟

قلت: فقل لى: كيف يكفينا أيها العبقرى؟!

قال: إن ذلك واضح وضوح الشمس. إن هذا الراهب العالم قد انفرد به

وألقى إليه من الأخبار والقصص التى جاءت فى كتب اليهود والنصارى ما صاغه فى القرآن. أليس هذا ما يقول به العقل السليم ويقتضيه النقد الواعى؟ إذا تشابهت قصتان أو روايتان تاريخياً فلا بد أن اللاحقة منهما أخذت من السابقة.

قلت: فقل لى أيها الناقد البارع الذى أجهد نفسه فى البحث بعين فاحصة ناقدة وأخرى مغمضة مقفلة: كم كانت سن النبى عليه الصلاة والسلام حين التقى بحيرى؟

قال: هه!

قلت: أنسيت أم أن هذه لا ترضى عنها عين نقدك الواعى؟

قال: خمس عشرة سنة!

قلت: وجاء بالقرآن فى الأربعين!

قال: وماذا فى ذلك؟

قلت: وهل يقول العقل السليم والنقد الواعى أن رجلاً يعلم علماً وهو صبى صغير ثم يكتمه وينتظر ربع قرن لا يبدو عليه منه شئ ثم يبوح به؟ أتراه كان ينتظر انقضاء زمن خطورة هذه المعلومات على الأمن القومى لمكة؟!

قال: فهذه سخرية صريحة لم أعهدها منك!

قلت: وهل دفعنى إليها إلا أنك تركت ساحة الجد إلى مرابض الهزل!

ثم قل لى: التقى بحيرى النبى عليه الصلاة والسلام وحده؟

قال: إن السير تقول إنه كان فى قافلة من تجار قريش.

قلت: ونقدك الواعى يرى أنه وسط هذا الجمع الغفير انفرد بحيرى بصبى صغير يوماً أو أياماً قدر ما يستريح المسافرون فعلمه علم الأولين والآخرين؟!

قال : ربما ألقى إليه أصول هذه القصص والأخبار وقص عليه طرفاً منها ثم أكمل هو الباقى؟

قلت : فإن العرب الذين أفحمهم القرآن وبكّتهم وأرغم أنوفهم قالوا فى القرآن إنه شعر وإنه سحر وإنه كهانة فهل سمعت عن أحد منهم قال : إن هذا القرآن علم تعلمه عليه الصلاة والسلام من راهب قبل خمسة وعشرين عاماً؟

قال : لا أعرف .

قلت : بل تعرف وجفونك المنتفخة شاهدة عليك . فقل لى : لك صديق وهو كاتب كبير .

قال : أين أحجياتك؟ لم أسمعها من زمن .

قلت : وهو عَلَم فى الناس ولكنه سرق كتاباً فادعاه لنفسه حتى صار يعرف به .

قال : يا له من خسيس!

قلت : ثم ثارت بينكما خصومة وملاحاة وادعى عليك الكذب وشنع . فإن كنت لم تخبر عنه وعن سرقته الكتاب وهو لك صديق حبيب أتسكت عنه وهو عدو لك مخاصم؟

قال : لا .

قلت : فإذا كنت تعلم أن شهوداً شهدوا سرقته الكتاب ويعلمون تفاصيلها ألا تستشهدهم عليه؟

قال : ألا ترى أن هذا موقف لا يسكت فيه خصم عن خصمه، فما بالك وأنا أملك عليه الحجة وما أفضحه وأخزيه به؟

قلت : أفتترك الحجة الواقعة بدلائلها وشهودها ثم تبحث عن الحجة فى الأوهام وما لا دليل عليه ولا سبيل لتصديقه .

قال : أتظن أنى مخبول!

قلت: فقل لى أيها الناقد الواعى: لو كان القرآن من بحيرى هذا أكانت قريش وقد شهد كبارها هذا اللقاء الخرافى تترك هذه الحجة فلا تذيعها وتنشرها وتنتصر بها وتأتى بالشهود عليها؟ ألا يدلك عدم استشهاد أحد منهم بهذا اللقاء وتركهم له إلى غيره من الحجج التى اخترعوها أنه لم يكن له أثر ولم يحدث فيه شئ يذكر؟

قال: فلنقل إنه كان قليل الأثر.

قلت: بل عديم الأثر. ثم تأمل هذه الواقعة وقل لى: أسمع أحد عن بحيرى هذا قبل هذا اللقاء أو بعده؟

قال: لا أدرى.

قلت: فعدم درايتك به تدل على أنه نكرة فى التاريخ. أفيسوغ العقل أن يأخذ الواضح البين من المجهول المطموس، وأن يكون مصدر المعرفة نكرة؟

قال: ربما منحتُ لقاء بحيرى أثراً أخطر مما يستحقه، ولكن لا يرد إلى خلدك أن الأمر انتهى فما زال فى جعبتى المزيد.

قلت: وإنى على استعداد لمزيدك هذا.

قال: أن يكون بحيرى أو غيره لم يعلمه القرآن ولم يخبره به لا ينفى أن يكون له مصادر سابقة عليه. وإنى لا زلت عند قولى رغم سخريتك منه. إن النقد الواعى والنظر السديد ليقول: إن المصدر اللاحق لابد أن يكون قد أخذ عن السابق.

قلت: فإنى مع نقدك الواعي هذا إلى باب الدار!

قال: أنت قاص كبير.

قلت ضاحكاً: ها قد بدأت أنت أيضاً فى الأحجيات حتى لا تعيبها علىَّ بعد ذلك.

قال: فمن أين تأتى بمادة ما تكتب وكيف يتكون عقل القاص فيك؟

قلت: ألحظ مجتمعي وما حولي والناس وأحوالهم.

قال: وفقط؟!

قلت: لا. بل أتعرف ما كتب قبلي وأحاول استيعابه وأحضر مجالس الأدب حتى أكون كما قال ابن المقفع: شربت الخطب رياً، وحفظتها روياً، فغاضت ثم فاضت، فلا هي هي ولا هي غيرها.

قال: قف مكانك! قد وصلنا! فانزع لي الغموض الذي يلف هذه العبارة حتى تشرق كشمس الشتاء من بين السحاب.

قلت: فإذاً أنهل مما حولي من ثقافة وأدب حتى أرتوي ثم أشكل منها وأصوغ.

قال: يا لك من أديب بارع!

قلت: أوقد انتهت أحجيتك؟

قال نعم! فلماذا لا يكون القرآن نتاجا لثقافة يهودية ونصرانية أخذ منها شيئاً فشيئاً وترسبت في عقله وساهمت في تكوينه فغاضت ثم فاضت كما قال ابن المقفع؟

قلت: قد تبادلنا المواقع فأنت تقول الأحجيات وأنا الآن أقول لك كما كنت تقول لي: البينة ... البينة ... أين البينة على ما تقول؟

قال: هل هذه تحتاج إلى بينة؟ إن هذه الثقافة تكونت من التوراة والإنجيل.

قلت: أي توراة؟ وأي إنجيل؟

قال: أي توراة؟! وأي إنجيل؟! أليست التوراة والإنجيل موجودة قبل القرآن بمئات السنين؟

قلت: ليس هذا ما قصدته. وإنما أتراه عليه الصلاة والسلام تثقف بالتوراة والإنجيل مكتوبين بالعبرية والسريانية واليونانية أم بالعربية؟

قال: فلنجعلها هكذا وهكذا.

قلت : فابدأ بوحدة .

قال : بالعبرية والسريانية واليونانية .

قلت : إن نقدك هذا لو سلطته على الكرة الأرضية لأزالها من الوجود ! هل نسيت أنه عليه الصلاة والسلام والعرب جميعا أميون ، وبالكاد يعرف نفر منهم قراءة وكتابة العربية . أترى أنهم كانوا يجهلون قراءة وكتاب العربية لغتهم ويجيدون غيرها أيها الواعى ؟

قال : ربما !

قلت : بدأت تحرن من جديد ! فلو كان عليه الصلاة والسلام يعلم العبرية والسريانية لما كان هناك داع لأن يندب زيد بن ثابت ليتعلمها حتى يأمن شر اليهود على القرآن .

أما ترى أنه لا يمكن أن يكون على علم سابق بما فى التوراة والإنجيل ؟

قال : تريد إغلاق الباب وكأن الأمر استقر والمسألة انتهت ! لا . ليس بعد . فإذا لم يكن قد قرأ التوراة والإنجيل بلغاتها فما يمنع أن يكون قد عرفها بالعربية ؟

قلت : فكيف وهو لا يقرأ ولا يكتب ؟

قال : فهذه الأمية لا تمنع معرفته بما جاء فيها . فقد كان يمكنه الاطلاع عليه مما يقال ويتناقل ويرويه من حوله .

قلت : ومن يعرف ممن حوله إذا كان لا يوجد نص على عهده عليه الصلاة والسلام من التوراة والإنجيل بالعربية ؟

قال وهو يقلدنى : لقد فقدت الحجة فبدأت تترك ساحة الجد إلى مرابض الهزل .

قلت مبتسماً : أفسنتبادل المواقع ثانية .

قال : لا أدرى كيف تواتيك الجرأة حتى تصدر حكماً ضخماً كهذا ؟ وهل أنت استقصيت تاريخ العرب فى الجاهلية وعند بدء الإسلام كله ، وتفاصيل

حياتهم ومصادر ثقافتهم حتى تصدر حكماً كهذا الحكم، لا أدرى ماذا أقول: المجنون!

قلت: لا تسئ الظن بى! نعم لم أستقص ذلك كله ولكن عندنا من الدلائل والقرائن ما يكفينا. فإذا كان عندنا ما ينفى وليس يوجد ثمة ما يثبت، ألا يكون ذلك كافياً حتى تجد أنت أو غيرك ما يناقضه؟

قال: فقل لى: أين هى هذه الدلائل والقرائن التى تجعلك تصدر مثل هذا الحكم الهائل؟

قلت: أتعرف حجة الإسلام؟

قال: أبو حامد الغزالى؟

قلت: نعم! هو بعينه.

قال: وما الذى أدخله فيما نحن فيه؟

قلت: فإنه أول القرائن والأدلة!

قال: أتأتينى برجل كان يعيش بعد الزمن الذى نتحدث عنه بقرون طوال ثم تقول لى: هو أول القرائن والأدلة؟!

قلت: بل والأعجب أن ما قلته أنت عنه الآن هو القرينة وما تتعجب منه هو الدليل!

قال: ألم تكتف من هذه الألغاز؟

قلت: هل تعرف شيئاً عن حال الثقافة فى زمن حجة الإسلام؟

قال: يسيراً؛ كانت رقعة الدولة الإسلامية متسعة، والترجمة مزدهرة وكتابات الإغريق وعلومهم الفلسفية والكلامية شائعة، والحروب الفكرية بين الفرق على أشدها، والصلات بين الدولة الإسلامية والروم قائمة.

قلت: لا نحتاج لأكثر من هذا اليسير الذى تعلمه. فرغم اتساع رقعة

الدولة وانتشار المعرفة وتنوع مصادرها وازدهار الترجمة فلم يكن فى عصر الغزالى ترجمة عربية واحدة للإنجيل وبالأحرى للتوراة.

قال: عدت إلى الأحكام المجنونة! ومن أدراك؟

قلت: الغزالى نفسه! فإنه أراد أن يؤلف كتاباً يفند فيه عقائد النصارى فسماه «الرد على مدعى الوهية المسيح بصريح الإنجيل» فلم يجد نسخة عربية واحدة من الإنجيل يرجع إليها واضطر إلى الاستعانة بمخطوط قبطى

فهل يقول النقد الواعى إن الغزالى لم يجد نسخة عربية من الإنجيل فى عصر الثقافة الواسعة المتنوعة والترجمة المزدهرة، ثم توجد هذه النسخة قبله بأربعة قرون فى قبائل أمية مفرقة فى بيداء شبه معزولة عن العالم ليس لها حظ من العلم ولا نصيب من الثقافة.

قال: مازلت أرى حكمك مجنوناً؛ فإن الغزالى مهما كانت قدرته واطلاعه فهو رجل وحده، ولم تكن طبيعة العصر ووسائل البحث بالتى تسمح بالتنقيب والوصول إلى مثل هذه النسخة أو النسخ التى تنفى أنت وجودها وانتشار تأثيرها الثقافى فى فكر العرب ومن ثَم القرآن.

قلت: إن سعادتى بك لا توصف! فإنك دائماً ما تنقذنى وتعطينى أنت الحجة عليك.

قال: ماذا أقول؟! لا فائدة فيك! أين هى هذه الحجة؟

قلت: هاك الدليل من عصر التوثيق ونضج وسائل البحث والتنقيب. هات هذا الكتاب الضخم إلى جوارك.

قال وهو يتصفحه: شعراء النصرانية فى الجاهلية. الأب لويس شيخو.

قلت: نعم وليس وحده، بل عكف سنين عدداً مع فريق جنَّده لجمع ما تراه بين يديك.

قال: أين الدليل فيه؟ إنى لأراه دليلاً عليك. فإذا كان الكتاب عن النصرانية فى الشعر الجاهلى فإنه يثبت وجود هذه الثقافة فى الجاهلية لا انعدامها.

قلت: فإنى سأعطيك ما تريد وأمنحك جائزة ضخمة، وأهم من ذلك سأعترف لك وأقر بالنقد الواعى لو أثبت أن فى هذا الكتاب الضخم الفخم الذى احتشدت له كتيبة من النقاد الواعين أمثالك شيئاً يمت للنصرانية بصلة غير عنوانه!

قال وهو يقلب فيه: أراك واثقاً مما تقول.

قلت: فخذه وتأمله بعقلك السديد ونقدك الواعى، فإذا كان الأمر كما أقول فإنى لا أنتظر منك أقل من أن تعترف أن نقدك الواعى لو وضع فى ميزان النقد الواعى لما صار نقداً ولا واعياً!

* * *

قلت: ها! إلى أين وصل بك نقدك الواعى؟

قال: حقيقة لم أستطع الوصول إلى الطريقة التى استمد بها القرآن من التوراة والإنجيل.

قلت: إن عبارتك لمريبة!

قال: فإنك قد نفيت وجود المصدر التوراتى أو الإنجيلى فى البيئة العربية والذى يمكن أن يستمد منه القرآن.

قلت: أو ليس هذا كافياً لإثبات أن القرآن ليس منهما بل هو من الله عز وجل؟

قال: لا. ليس كافياً! فهذه مسألة وتلك أخرى.

قلت: وما هى الأخرى هذه؟

قال: إن عدم وصولى إلى الطريقة التى أخذ بها القرآن من التوراة والإنجيل لا ينفى حدوث ذلك. فإن الزمن قد تباعد وربما انتقل هذا التأثير وضاع خبره فى التاريخ.

قلت: ما رأيك؟ سأروى لك طرفة!

قال: طرفة! أم حيلة من حيلك؟!

قلت: يقال إن جحا سُئل: الشمس أكثر فائدة للناس أم القمر؟

قال: وهل هذا سؤال؟ وهل يقارن بين الأصل والفرع والمتبوع وما يتبعه؟ فهل يأخذ القمر نوره إلا من ضياء الشمس؟

قلت: فهذه هى الطرفة. رغم كل ما تقول فإن جحا أجاب باقتدار وثقة: القمر أكثر فائدة لأنه يأتى فى الليل والدنيا مظلمة. أما الشمس فلا تطلع إلا فى النهار والناس فى غنى عنها!!

ضحك عالياً وهو يهتز أماماً وخلفاً ثم قال: يا له من مغفل!

قلت مبتسماً: هون عليك ولا تقس على نفسك هكذا يا جحا!

قال مبهوتاً: أنا! جحا!

قلت: وهل فعلت أنت إلا كما فعل جحا. أما ترى أنك ما زدت على أن نسبت القرآن الثابت الخالد الذى لم يتغير ولم يتبدل ولم تختلف نسخه إلى التوراة والإنجيل المتقلبة من عصر إلى عصر، المتضاربة من نسخة إلى نسخة، المجهولة المصدر فى التاريخ؟

فهل يسوغ فى العقل أن يستند القوى إلى الضعيف ويستمد المحيط من البئر؟

قال: دعك من هذا الإنشاء، فإن العقل ليقول إن التشابه بين القرآن وما جاء فى التوراة والإنجيل لابد أن يكون لأن أحدهم نهل من الآخر، فمن سبق فى التاريخ فهو النبع ومن لحق فهو الآخذ.

قلت: إنك تنسى أن القرآن نفسه لم ينكر الصلة بينه وبين التوراة والإنجيل. أليس القرآن نفسه يقول: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ** ﴾ [آل عمران: ٢ – ٤]؟

قال: وهل رأيتنى أقررت لك بعدُ أن القرآن إلهى حتى تقول لى: إن التوراة والإنجيل من الله؟ ما زدت على أن فسرت لى الماء بعد جهد بالماء! فإنك تقول لى: إنها متشابهة لوحدة مصدرها، وأنا أقول لك: إنها ما كانت كذلك إلا لأن أحدها أخذ من الآخر.

قلت: مهلا مهلا! فإنى لم أقل لك إنها متشابهة. وإنما قلت: إن بينها صلة، ليست هى التشابه بل هى هيمنة القرآن عليها مبيناً ما خفى، ومصححاً ما حرف، ومعيداً ما بدل إلى أصله وصوابه. فالقرآن الذى أقر بهذه الصلة يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾

[المائدة: ٤٨]

قال: أراك قد أعيتك الحيلة فتبحث عن منفذ تهرب منه. فدعك من هذه الهيمنة، فليست هى ما نحن فيه.

قلت: بل ليس ما نحن فيه إلا هى. أرأيت لو أخذ القرآن من التوراة والإنجيل وكانا مصدره أما كان ينبغى أن يتشابه معهما فى كل شئ بل يتطابق معهما؟

قال: فها قد حكمت بنفسك! أليس هذا هو الواقع؟ ألا ترى تشابه قصص القرآن مع ما جاء فى التوراة والإنجيل؟

قلت: ترفق ولنتأمل المسألة بروية. ما هو لب كل دين وقاعدته التى يتأسس عليها؟

قال: لا ريب هى العقائد؟

قلت: ها قد كفانا عقلك الواعى مشقة البحث وأراحنا من المتاهات التى يفضى بعضها إلى بعض ولا آخر لها. فلنجعل حديثنا فى لب كل كتاب لنرى أين هو التشابه الذى تزعمه.

أتحب أن نبدأ بالتوراة أم بالإنجيل؟

قال: بالإنجيل فهو أقرب زمنا للقرآن.

قلت: فعليك بالإنجيل وعليَّ بالقرآن.

قال فى سرور وجذل: أراها ستكون موقعة مثيرة!

قلت: فانظر فى الإصحاح السادس والعشرين من إنجيل متى وقل لى: بم يصف المسيح نفسه؟

قال: «قال له رئيس الكهنة: أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا: هل أنت ابن الله؟ قال له يسوع: أنت قلت».

قلت: فها أنت ترى يسوع أقر على لسان الإنجيل أنه ابن الله.

قال: فأين الإقرار؟ إن «أنت قلت» هذه قد تعنى التبرؤ من ذلك بنسبة القول إلى الكاهن لا إلى نفسه.

قلت: لا أدرى من أى صخرة قُدت رأسك؟! فإن هذه الجملة ترد مرات عدة فى الإنجيل دليلاً على الموافقة، ورغم ذلك فها هى الموافقة صريحة. فانظر فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل مرقس أو الثانى والعشرين من إنجيل لوقا وقل لى: ماذا كان رده على السؤال؟

بحلق أمامه ثم قال: «أنا هو».

قلت: فالمسيح فى الإنجيل ابن الله، فكيف يكون القرآن استمد من الإنجيل وهو ينفى عن الله – عز وجل – الولد، فهو واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ويقول فى نقض ما نسبوه زوراً إلى المسيح: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٦]، بل ويجعل هذا النفى والنقض على لسان المسيح نفسه: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي**

بحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. فها أنت ترى أن المسيح فى القرآن ليس إلا ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥].

قال: فهذه واحدة!

قلت: نسيت أنك لا يكفيك من البينات إلا ما تعجز عن عده الحاسبات!

قال: فاسخر ما شئت. أتظن سُخْرِيَّتك ستجعلنى أتراجع؟

قلت: وهل جعلتك تتراجع من قبل حتى تتراجع الآن؟

فقل لى: ما الحكمة وقد جعلوا المسيح لله عز وجل ابناً فى أن ينزل إلى الأرض؟

قال: فهذه لا تحتاج إلى قراءة ولا تنقيب. ليُصلب فداءً للبشرية وتخليصاً للعالم من خطيئته.

قلت: بل أنا الذى أريدك أن تقرأ. فقد تعودت منك المراوغة والتفلت ولا أضمن أن تعود بعد حين فتقول لى: إن هذا قالوه أو اتفقوا عليه فى المجامع والإنجيل منه برئ.

قال مبتسماً: تريد أن تحيك الشبكة فلا تترك فيها ثلمة.

قلت: أليس كل منا يشحذ ما يستطيع من أسلحته؟ فاقرأ ها هنا من إنجيل لوقا.

قال: «وإن ابن الإنسان قد جاء ليصلب ويخلص ما قد هلك».

قلت: فاين الإنجيل الذى يُحمِّل المسيح أوزار البشرية كلها حتى ليهدر دمه من أجلها من القرآن الذى يجعل كل فرد مسئولاً عن نفسه لا ينفعه والد ولا يحمل وزره عنه ولد ولا يؤخذ فيه برئ بجريرة ظالم؟

وأين الإنجيل الذي يحمل كل فرد فى البشرية وزر خطيئة لم يرتكبها يولد مغلولاً بها من الفرد الذى يولد فى القرآن نقياً طاهراً ولا يحمل من الأوزار والآثام إلا ما جنت يداه.

أليس القرآن يقول: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]
﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]
﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥]

قال: فهذه ثانية!!

قلت: فماذا تريد بعد هذا الاختلاف البين والمفارقة الصارخة؟!

قال: لن أتنازل عن الثالثة.

قلت: فما كان مصير عيسى عليه السلام كما يقول الإنجيل؟

قال: إنه يقول: .....

قلت: انتظر!

قال: نسيت! تريدني أن أقرأ. وأخذ يقلب الوريقات مرددا: الصلب... الصلب... ها هو ... إنجيل يوحنا الإصحاح التاسع عشر: «فلما سمع بيلاطس هذا القول أخرج يسوع... فقال لليهود: هو ذا ملككم. فصرخوا: خذه خذه اصلبه. فحينئذ أسلمه إليهم ليصلب فأخذوا يسوع ومضوا به فخرج وهو حامل صليبه حيث صلبوه وصلبوا اثنين آخرين معه من هنا ومن هنا ويسوع في الوسط».

قلت: كفاك هذا. ها قد رأيت بعينيك الإنجيل يقول: إنه عذب وأهين ثم صلب. وأما القرآن فيكذب ذلك كله في حسم قاطع ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ [النساء: ١٥٧].

فقل لي: من أين تنبع مياه النيل؟

قال: وهل انتهينا من العقائد لندخل في الجغرافيا؟!

قلت: أجبني فقط وانتظر!

قال: من الأمطار الهائلة التي تهطل على هضبة الحبشة وهضبة البحيرات فتتدفق أنهاراً وروافد تجتمع لتكون النيل.

قلت : فإنى أخالفك وما أراه ينبع إلا من صحراء إفريقيا الكبرى!

قال : يبدو أنك بدأت تهذى! أتنبع الأنهار من الصحارى القفار؟!

قلت : فأنا لن أصدق أن القرآن والله الواحد الأحد الفرد الصمد آتية من الإنجيل الذى جعل الله – عز وجل – ينجب ويتثلث ويتأقنم ويهان ويصلب حتى تثبت لى . . إن استطعت أن النيل ينبع من صحراء إفريقيا الكبرى .

قال مبتسماً : إنك لدؤوب ماهر ولا تزال تنسج الشبكة حولى وتختار من خيوطها ما يوافقك ويعينك على حبكها ثم تطالبنى بالتسليم داخلها .

قلت : فتأمل أنت وتفكر ملياً واختر من الخيوط ما تشاء . ألا ترى أن الأناجيل التى بين يديك كلها لتدور كل خيوطها وتلتقى على عقدة واحدة ليس فيها غيرها؟

قال : فإذا كان الإنجيل لا يمكن أن يكون مصدراً للقرآن للاختلاف البين فى عقائدهما، فلا أظنك تمارى فى أن عقيدة القرآن التوحيدية لتشابه عقيدة التوراة حتى ليتطابقا . وإن هذا التشابه بل التطابق لينبئ بما أصر عليه أنا وتأباه أنت من أن صلة القرآن بالكتب قبله هى صلة الآخذ بالنبع .

قلت : فأين هذا التشابه والتطابق الذى تدعيه؟

قال : أدعيه!؟ تعرف! إنك فى بعض الأحيان تثير ذهولى؛ فإنى لأراك تنكر ما يسطع سطوع الشمس!

قلت : يسطع كالشمس! هكذا مرة واحدة!

قال : أتظننى سأنساق خلف سخريتك هذه وأشغل عن خيوط الشبكة التى أراها تلتف حولك هذه المرة ولن أتركك إلا وأنت فيها .

قلت : فهيا أرنى مهارتك أيها الصائد الهمام .

قال : أليس الله فى القرآن واحداً أحداً لا شبيه له ولا نظير ولا ولد؟

قلت: بلى! هو كذلك عز وجل.

قال: أليس الله فى التوراة واحداً أحداً.

قلت: وهذه أيضا بلى.

قال فى سرور: ها قد انتهت المسألة، فعقيدة التوراة هى عقيدة القرآن، فلابد أن أحدهما نهل من الآخر.

قلت: إن ابتسامتك المشرقة هذه لتروق لى وتعجبنى. ولكن من قال إن عقيدة القرآن هى عقيدة التوراة؟

قال: أستعود فيما أقررت به ولما تنتهى منه؟

قلت: ما عدت فى شئ. ولكن أسمعت عن أحد يصنع شبكة من خيط واحد لا سواه؟

قال: خيط واحد! أما تريد أن تكف عن ألغازك هذه؟ هذه التوراة وهذا القرآن بينى وبينك.

قلت: عظيم! فلنقطع العرق ونسفح دمه كما يقولون، سيما وأنت تعشق المواقع المثيرة.

فاقرأ لى....

قال مقاطعا بسرعة: أقرأ لك! ذلك زمان قد ولى! أتريد أن تختار ما يعجبك كما تفعل فى كل مرة؟ بل اقرأ لى أنت هنا.

قلت: أين بالضبط؟

قال: الإصحاح الخامس من سفر الخروج.

قلت: فها قد اخترت ما تحب فكن أنت شاهداً على نفسك.

«وبعد ذلك دخل موسي وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل: أطلق شعبى يعبدوا لى فى البرية فقال فرعون: من الرب حتى أسمع

لقوله فأطلق إسرائيل؟ لا اعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه. فقالا: إله العبرانيين قد التقانا».

قال: ما رأيك في الخيط الأول؟ أليست هذه العبارة هي التي ترجمها القرآن ﴿ **فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ** ﴾ [طه: ٤٧].

قلت: وترى أنت بعبقريتك خيط الحرير الذى يبرق من كل ناحية فى عبارة القرآن كالحبل المجدول من الليف فى عبارة التوراة؟

قال: دعك من هذه التشبيهات التى لا تقدم ولا تؤخر.

قلت: بل دعك أنت من خيوطك وقل لى: أى إله يتكلم عنه موسى فى التوراة؟

قال: أى إله! ألم تقرأ أنت بنفسك؟ إله إسرائيل.

قلت: وإله العبرانيين. وهم فقط دون العالمين شعبه.

قال: آه!

قلت: أفترى أن هذا الإله الذى جعلته التوراة رباً قبلياً لليهود فقط وهو فيهم كالملك فى قومه أو شيخ القبيلة فى قبيلته هو الله رب العالمين فى القرآن، بل ورب فرعون نفسه؟ أما يقول موسى له فى القرآن ﴿ **إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ** ﴾ ؟

ثم هل نسيت أم تناسيت – عمداً – أن تكمل خيط القرآن إلى نهايته. ألم يسأل فرعون موسى فى القرآن: ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ** ﴾ [طه: ٤٩] فأجابه: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ [طه: ٥٠]، أفترى ﴿ **كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ هذه تساوى «العبرانيين» أو «إسرائيل» التى فى التوراة؟ ألا ترى أن شبكتك واهية؟

قال: فذلك خيط قد فلت والخيوط كثيرة.

قلت: فهذه المرة اقرأ أنت من الإصحاح الثانى عشر.

قال: عدت لواحدة بواحدة مرة أخرى! فتذكر ذلك ولا تنساه.

«وكلم الرب موسي وهارون فى أرض مصر قائلاً: ... كلّما كل جماعة إسرائيل قائلين: فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت... ويكون عندكم تحت الحفظ إلى يوم الرابع عشر من هذا الشهر ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلون فيها... ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة الهلاك حين أضرب أرض مصر».

قلت: أتعرف ما هى هذه العلامة التى أمر إله التوراة بوضعها ليميز بيوت شعبه من بيوت أعدائه؟

قال: أنا لا أراها أمامى.

قلت: بل تراها على الأبواب أينما سرت! إنها الكف والأصابع الخمسة التى يضعها الناس على أبواب بيوتهم ليدفعوا عنها الشرور، وهم لا يعلمون أنهم يحيون بذلك سيرة اليهود وإلههم الجاهل!

قال: ما هذه التخاريف؟

قلت: الحمد لله. ها قد سبقك لسانك قبل أن يحرن عقلك. أفترى هذا الإله الجاهل الذى يحتاج إلى علامة ليعرف بها أنصاره ويميزهم من أعدائه هو هو الله الواحد فى القرآن؟

قال شارداً فى صوت خافت وهو يشخص ببصره إلى الفراغ خلفى: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [غافر: ١٩].

قلت: وأزيدك أنا حتى لا تنسى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ها! أما زلت لا تريد أن تقر أن شبكتك واهنة الخيوط واهية العقد واسعة الثقوب لا تصلح ليستقر فيها شئ؟ انتفض من شروده قائلاً: ومع ذلك فما زالت الشبكة شبكة وإن وهت روابطها ووهنت خيوطها.

قلت: فإليك الثالثة حتى تنفك عقدها وتنقطع خيوطها فلا يبقى منها إلا نتف لا تحجز ولا تمنع. هذا هو الإصحاح الثانى والثلاثون. اقرأ هذا الموقف الإغريقى المضحك.

قال: «فقال الرب لموسى... لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من مصر وزاغوا سريعاً عن الطريق الذى أوصيتهم به... فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم وأفنيهم. فتضرع موسى أمام الرب إلهه وقال: لماذا يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض؟ ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك... فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه».

قلت: ما رأيك؟! لو تأملت هذا الموقف المأساوى الملهاوى أيمكنك أن تقول لى من فيهما العبد ومن الرب؟: موسى الذى يبكت ويوبخ ويدلل على خطأ الحكم أم الإله الذي يثور غضباً ثم يندم ويتراجع عن قراره مخافة الفضائح وكلام الناس؟!

قال مبتسماً: لولا أنى أنا الذى قرأت لظننت أن هذا فصل من إحدى المسرحيات الإغريقية. فلا يكاد يفرق الإله عن زيوس كبير آلهة الأوليمب الغضوب النزق شيئاً.

قلت: أفترى أن مثل هذا الإله البشرى الأهواء والنزعات – كما شهدت أنت – هو هو الله الواحد الأحد فى القرآن الذى ﴿ **لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وهو الذى عنده ﴿ **خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا** ﴾ [طه: ١٠٨]؟

أطرق صامتاً في سكون فقلت: هل تعرف أحدث نظرية علمية معملية فذة عن مصدر مياه المحيط الصاخبة وأمواجه الهادرة؟

قال بابتسامة فيها الشك والخبث: عدنا إلى الجغرافيا مرة أخرى!

قلت: المحيط مُلاء بها من البئر بدلو!!

قال ضاحكاً في صخب: فلا يكون القرآن نابعاً من التوراة حتى تكون مياه المحيط الصاخبة وأمواجه الهادرة أفرغت فيه من البئر بدلو؟!

قلت وأنا أميل إليه وأضحك معه: عليك نور!

* * *